

الوجوه الأخرى

القدس: ١-٤-٢٠١٠ رواية (الوجوه الأخرى) للأديبة د.وداد البرغوثي الصادرة عام ٢٠٠٧ عن دار الخيال في بيروت تقع في ١٧٥ صفحة من الحجم المتوسط، كانت محور النقاش في الندوة.

بدأ النقاش مشرف الندوة جميل السلحوت فقال:

بداية أقول أنه كلما قرأت عملاً إبداعياً للمبدعة وداد البرغوثي، كلما تأكد لي من جديد أن المبدع في كتاباته يكتب شيئاً من حياته، وأن أختنا وداد تبحث في خبايا ذاكرتها لتستخرج من مخزونها ما تصوغه لنا عملاً إبداعياً، وفي روايتها هذه فإن شخصية الكاتبة واضحة في الصحفية (أسماء ناصر) التي هي الراوية، وهي محررة شخصيات الرواية، وعندما تسافر إلى تونس لحضور مؤتمر إعلامي فإنها تتذكر صديقتها وزميلتها اليمنية التي درست وإياها في موسكو وتتساءل (هل يمكن أن ألتقي بصديقتي الصحفية اليمنية؟ هل ستتندبها صحيفة؟ أكتوبر لتشارك في هذا المؤتمر؟) ص ٧ وتحدثنا شيئاً عن طفولتها المبكرة، وكيف كادت تغرق في سيل مياه الأمطار الجارية، وعن انتعال الأحذية البلاستيكية، وعن عدم رضاها

عن نفسها عندما جاء ترتيبها الأولى على الطالبات في الصف الابتدائي الأول، لظنها الطفولي أن الأخريات أفضل منها، وعن سجن والدها، وهذه أمور ذكرتها جميعها في روايتها (نلّ الحكايا) غير أن سردها لها بشكل عابر في رواية (الوجوه الأخرى) له ما يبرره لخدمة النص الروائي، دون الإثقال على القارئ، لكنه في كلّ الأحوال يبقى دليلا على أن أدبيتنا تكتب شيئا من سيرتها الذاتية في كتابتها معتمدة على ذاكرتها التي تنشط في الوقت المناسب، تماما مثلما هو شاهد عليها بأنها تكتب أدبا واقعيًا عن حوادث ترهق ذاكرتها، وتتوء بحملها فتطرحها على الورق لأخذ العبر منها.

وفي (الوجوه الأخرى) طرحت لنا الكاتبة شخصيات ليست سوية إيجابا أو سلبا، شخصيات تعاني مشاكل لا دخل لها في مسبباتها، لكنها بشكل وآخر هي ضحايا لها، وأولى هذه الوجوه هي عصمت الندام الذي أخذ حيزا كبيرا في الرواية، وعصمت هذا وحيد أبويه، والده داود الندام عميل سقط في شرك المخابرات، أسقطوه ودفعوه ليتقرب الى الناشطين في المقاومة في قريته، فأوقع بهم مقابل شواقل قليلة، فاستشهد أحدهم وأصيب آخر واعتقل آخرون، وسجن معهم ليواصل تجسسه من داخل السجن، وليقع في غرف العار، ومع ذلك حكموه خمسة عشر عاما، وليكسب عداوة رفاقه وأقاربه، وأبناء قريته ومعارفه، ولينبذ الجميع أفراد أسرته، مع أنهم لا ذنب لهم اقترفوه، فعصمت الطفل الذي اعتقل والده، أكمل مدرسته وسافر الى تونس ليكمل دراسته في القانون ليدافع عن المظلومين، التقى بـ (أسماء) في تونس عن طريق شخص تونسي، وتعاطفت معه

كونه ابن سجين سياسي، مثلما هي ابنة سجين سياسي، وكونه في مثل جيل ابنائها أيضا، وعن طريقه تعرفت على طالب الفنون التشكيلية حمدون العراقي اللاجئ السياسي في تونس، ويلاحظ أن عصمت الذي لم يكن يعرف شيئا عن حقيقة والده كان فخورا بهذا الوالد، ولما أفرج عن والده عاد وهو في شوق عظيم لهذا الوالد، لكنه عندما علم بالحقيقة شكلت له صدمة نفسية جعلته يتوارى عن الناس، وهنا فهم سرّ زواج حبيبته وزميلته منذ الطفولة هدى التي تعلق بها، ويبتعد عنهم لعدم قدرته على مواجهتهم نتيجة عار والده في العمالة، فما لبث أن ترك القرية بحجة مواصلة التعليم حيث سافر الى روسيا، ليتزوج هناك من فتاة روسية مسلمة "ناديجدا" -نادية- والذي علم لاحقا أن لها أكثر من عشيق، وليسقط بعدها على الرصيف من شرفة الطابق الثالث عشر في إحدى البنايات، دون معرفة إذا كان ذلك انتحارا أو بدافع من آخر، أو ترحلحا عفويا.

ويلاحظ أن الكاتبة فضحت العمالة بأسلوب روائي سردت فيه ما يتعرض له الساقط في برائن العمالة من ضغوط نفسية، ومن اذلال على أيدي جلاديه، وعلى أيدي ضحاياه أيضا، وأنه اذا لم يقتل على أيدي من خانهم من أبناء شعبه، فإنه سيقتل على أيدي أسياده بعد أن انتهوا منه، لكن أثر العمالة لا يقتصر على العميل نفسه، بل يتعداه الى بقية أفراد أسرته، مع أنهم لم يشاركوه العمالة، وهذا ما لاحظناه على أمّ عصمت زوجة العميل داود الندام التي قاطعتها صديقاتها السابقات عندما علمن بعمالته، فصديقتها أمّ خالد زوجة وأمّ لشهيد وأمّ لأسير هم ضحايا لهذا العميل، وقريبه محمود الندام قضى سنوات طويلة في السجن نتيجة

ابن عمّه العميل، أمّا عصمت فقد كانت خبيته كبيرة بأبيه العميل، مما قاده الى الهجرة بعيدا عن وطنه حيث قضى نحبه، وما لم نقله الرواية لكنه يقرأ بين السطور أن داود الندام مسؤول عن ضياع ابنه وقتله أيضا، وقد أحسنت الكاتبة وصفا عندما شبهت العميل بـ(مصيفة الغور اللي لا صيفه جابت ولا رجعت بشرفها) وهو مثل فلسطيني يضرب فيمن يفشل في عمل ما، ويخسر شرفه أيضا.

ويلاحظ أن الرواية لم تُكنْ أبناء العملاء وزوجاتهم وأسرهم لأنهم لم يقتربوا ذنبا، وقد ظهرُوا في الرواية كضحايا لا حول لهم ولا قوّة، وفي هذا رسالة لمن تسول له نفسه بالعمالة مفادها، أنه عمله الجريمة لن تقتصر نتائجه التدميرية عليه فقط، بل تتعداه الى أقرب الناس اليه، الذين من المفترض أن يوفر لهم الحماية والعيش الكريم، كزوجته وأبنائه، وتتعداهم الى أبناء العائلة والأصدقاء.

ومن المفارقات الجميلة في الرواية وجود العراقي حمدون الفنان التشكيلي، فوطنه محتل هو أيضا، لكنه كان سعيدا في تونس وفي موسكو، وزوجته التي كانت معلمة مدرسة تركت عملها لتلتحق ومعها طفلها دجلة وقرات بزوجه، على عكس عصمت ابن العميل فقد تركته صديقة الطفولة والتي كان يخطط للزواج منها والسبب هو أنه ابن عميل.

وقال الناقد ابراهيم جوهر:

وجوه الإنسان المهشمة في رواية (الوجوه الأخرى) لوداد البرغوثي:

رواية (الوجوه الأخرى) للأديبة الإعلامية وداد البرغوثي هي رواية شخصيات إنسانية، تنقل من خلالها الإنسان الفلسطيني والعربي المغترب عن واقعه، المتنافر مع وطنه بناسه وذكرياته، المحاول التكيف مع الواقع والعيش بهدوء إنساني تتوق إليه النفس البشرية فيبرز له الاحتلال ليشوّه هدوءه وحياته الداخلية فيخرجه من دائرة الفعل الإنساني إلى دائرة النفي الذاتي والاعتراب فيجد نفسه منهزما مقهورا لا حلّ أمامه سوى الانتحار. هذا ما حصل مع عصمت الندّام الفتى الطيب العاشق الذي ضاقت عليه أرض وطنه بما رحبت، فلم يجد حلا سوى الانتحار في بلاد الثلج الباردة، ليكتب بدمه هناك على الثلج الحقيقي، و(الثلج) المجازي، ثلج القلوب غير الرحيمة التي أخذته بجريمة لم يقترفها، وعاقبته وحاصرت حبه وحياته وأخرجته من بلده ليموت بعيدا موتة باردة تطرح أسئلة تظل معلقة بلا إجابات .

في هذه الرواية تصوّر وداد البرغوثي وجوه شخصياتها الحاضرة المرئية الظاهرة للعيان، والوجوه الأخرى الكامنة غير المرئية المخفية . وبين هذه الوجوه الظاهرة الباسمة ، وتلك الوجوه المخفية ، تنتقل إلينا بوعي حالة الحيرة والضياغ والندم .

وجوه شخصيات وداد البرغوثي هنا المتزاحمة المتفاعلة العاملة والمتألمة المتألّمة ، يبرز خلفها وجه الاحتلال متعدد الوجوه في قبحه ولا إنسانيته وتدميره

وبشاعته ، لأنه المسبب الرئيس لحالة الضياع والنشطي والندم هذه التي تعذب الشخصيات النادمة.

إنه الندم إذن . ومنه جاء اسم أبي عصمت الندام الذي أورث الاسم برمزه ونطقه ومضمونه لابنه عصمت الذي تعرّفت عليه الراوية أسماء ناصر في تونس حيث كان يدرس الحقوق (القانون ، وهو اختيار هادف من الكاتبة الروائية ، إذ لا قانون سائد) بينما هي كانت في زيارة لحضور مؤتمر حول الإعلام والعولمة ، فتتعرف على وجهه الأصلي البريء الطيب الودود الخنوم حامل قيم الشهامة والمساعدة ، بينما يخفي عنها وجهه الآخر المهلهل المشتت الحائر المحير .

تبدأ الروائية وداد البرغوثي بالتعريف المباشر بشخصية عصمت الندام (هذا هو عصمت الندام الذي ظلّ لغزا محيرًا لي منذ الأيام الأولى لتعارفي به) ص ٥ وتنتهي الرواية في صفحة ١٧٥ ولغز موته أو انتحاره لم يحل بعد، وإن أوحى الأحداث والشهادات والتحليلات بأنه انتحر، لأنه في هذا الانتحار ينير دربا أومأت إليه الكاتبة في ثنايا الرواية .

سخرت الكاتبة منجزات الرواية البوليسية الفنية في روايتها، في سير أحداثها، والكشف البطيء الملعز لشخصياتها والإثارة الفنية بهدف الشد والتشويق، ولتتيح لها إيصال ما أرادت إيصاله من أفكار ومقارنات وتوازيات مع أحداث أو أشخاص تذكر بها المواقف والأحداث والجمل والكلمات، لأن كل حدث، وكل فكرة ، أو جملة، عند الكاتبة، لها ذاكرة . وكلما كانت تقترب من كشف

الشخصية أو الحدث كانت تدخل القارئ في دوامة أخرى، وكأنها دوائر الماء، دائرة تعقب أخرى، وتتسعب وتتوازي حتى تصل إلى المركز، نقطة الانطلاق نحو الخارج اللامتناهي، فنتضح الصورة وتتجلى بعد ربط الأجزاء معا.

في هذه الرواية لا يوجد فواصل رقمية ولا فصول، وربما تعمدت الكاتبة هذا الشكل لتوحي بأن حياة شخصياتها هي هذا التداخل العجيب الغريب غير محدد الملامح ولا الأسباب .

استخدمت في سبيل ذلك تقنية التداعي والاستحضار، فكل حدث أو مشهد أو جملة أو موقف، حدث شيء مماثل له مع الراوية، أو تقوم الروائية (الكاتبة) بالتعليق عليه وتثبته لتشكّل لوحة بنائها الروائي النهائية وكأنها خطوط تتوازي دائما وتتقاطع أحيانا.

كما استخدمت الكاتبة في أسلوبها تقنية الرسائل والوصية التي كتبها المنتحر عصمت إلى زوجته الروسية التي لا تعرف قراءة العربية، ولكنه مع ذلك كتب تلك الوصية (فهل أمأت الكاتبة هنا إلى أنها كتبت لمن لا يجيد قراءة ما كتبت ؟ مع العلم أنها كتبت لناسها هنا في الوطن الصغير والوطن الكبير على حد سواء !!) وهي رسائل توضح ما استتر من معاناة ومشاعر ، وما غمض من أحداث.

كما استخدمت في هذه الرواية أسلوب المونتاج والتداخل بين المواقف والتوازي بين الشخصيات داخل الرواية، وبين الشخصية المفردة وذاتها لتكشف اللثام عن الوجوه الأخرى التي عنتها في العنوان (الوجوه الأخرى).

ونظرا لتحمس الكاتبة لإيصال رسالتها في سيرة هذه الوجوه قامت بالتعليق في عدة مواطن بلسان الراوية نفسها ، إذ جاءت التعليقات في الصفحات ٤٩ و ٥١ و ٦٩ و ١٠١ مقحمة من خارج السياق الفني الروائي . وربما نجد تفسيراً لذلك في حرص الكاتبة على مشروعها الذي يعتمد سيرتها الذاتية في بعدها الذاتي ذي الأبعاد الرمزية المطابقة الممتدة حتى اللحظة الراهنة ، أو أن ذلك عائد إلى طبيعة عملها الصحفي الذي يحل ويعلق ، وإلى عملها في التعليم الذي يحرص على إيصال الفكرة وضرب الأمثلة والتعليق.

لفت انتباهي في لغة الكاتبة إشارتها للصمت ووصفها له بما يوضح الحالة النفسية المصوّرة . فهذا عصمت بعد طلبها منه زيارة أمه في القرية يقول : (لا .. لا .. لا ..) وتعلق قائلة : (تلت لاءاته الثلاث الحاسمة لحظة صمت دبق) ص ١٩ . وفي صفحة ٣٨ تروي : (... توترت أم عصمت وأكلت بسرعة ... فيما ساد بيننا ذلك النوع من الصمت الكريه القلق) . وفي صفحة ٤٣ جاء : (كنا ثلاثة ؛ أنا وعصمت والصمت كان ثقيلًا ثقيلًا ... ورأيت أن خير ما يقطع الصمت هو الأغنية).

صمت دبق ، وصمت كرية قلق، وصمت يتشخصن فيصير ثالث اثنين . وأمّ خالد صممت عن حكاية أبي عصمت الندّام (ص ٥٢) بينما المجموعة التي اعتقلت بسبب خيانة أبي عصمت أثرت السكوت، ولم تكشف المعلومات التي بين أيديها .

وكأنّي بالكاتبة تتخذ موقفا من الصمت الذي تميّزه عن السكوت. فالصمت موقف عاجز سلبي أخرس، بينما السكوت يكون لمبرّر موضوعي إلى حين. وقد وصفت الكاتبة الصمت بصفات أخرجته إلى دائرة الحواس ؛ فهو دبق يحسّ ، وهو كرية قلق يشمّ ويشعر به ، وهو حيرة وسكون تكسره كلمات أغنية.

الصمت هنا إشارة وتذكير؛ لم يعد الصمت يجدي .

وداد البرغوثي في رواية (الوجوه الأخرى) قدّمت رواية بتقنية حديثة، وكشفت عن الجوانب الإنسانية المغيّبة في حمى الانشغال بالراهن الآنّي، وكانت مشغولة بنقل الوجه الآخر لكل شيء. وهي تحقّق في روايتها هذه قفزة نوعية على صعيد لغة الروي والحدث والشخصية عن روايتها السابقة (تل الحكايا) التي غلبت عليها اللغة الصحفية التقريرية.

أمّا محمد موسى سويلم فقد قال:

الوجوه الأخرى رواية تعرّي الخيانة

تطل علينا الرواية من أصدق الأماكن، ألا وهي القرية بعبق طابونها وطهارة أرضها، وطيب معشر أهلها، من الجذور الضاربة في أعماق الأرض، نسجت

رواية إنسانية واصحة المعالم، بسيطة بعيدة عن التعقيد والمداهنة، استعملت كل أنواع الفن لتشكل لوحة فنية جميلة .

تحدثت عن عودة الدارسين في الخارج، وعن عدم ملائمة الوضع في البلد (الوطن) لهم بسبب اعتيادهم على حياة معينة في الغربية، فهذا الدكتور ص ٤٥ الذي يرغب بالهجرة الى امريكا بسبب هذا الشعب الذي لا يستحق الخدمة-حسب رأى الطبيب-فتجيبه بأنه يقدم خدمة لهذا الشعب بهجرته لأن البلد ليس بحاجة الى امثاله .

وهذا عصمت له أكثر من وجه، لا تعرف وجهه من قفاه، وكأن أباه أول واحد وآخر واحد في البشر الذين سقطوا، بس يا حسرتي عليه الصدمة كانت فوق طاقة (الله يكون في عونہ).

رسمت الأدبية وداد البرغوثي آلاف الوجوه في لوحة فسيفسائية، لوجه واحد هو عصمت الندام (انا أعتقد أن الندام في هذه الرواية جاء من الندم) الذي لا ذنب لها إلا كونه ابنا لشخص مرّ في لحظة ضعف، ولم يحسبها جيدا، وظن أن المال هو كل شيء في اعتقاد كثيرين من الناس المتناسين قول الله تعالى (أموالكم وأولادكم عدو لكم) فهذا نابليون بونابرت حين أراد احتلال إيطاليا لم يستطع الوصول بسبب جبال الألب، فأرشده على ذلك أحد أبناء المنطقة تصديقا للمثل (أهل مكة ادرى بشعابها) وحين احتل نابليون إيطاليا جاء هذا الشخص لمصافحة نابليون، فماذا فعل نابليون؟ اخرج من جيبه قطعة من الذهب ورمها

على الأرض، وضرب الرجل بقدمه وهو على صهوة فرسه وقال قوله المشهور: أمثالك لا يصافحون العظماء، أمثالك لهم الذهب الذي على الأرض، وهكذا في كل دول العالم لا يحترمون الخونة، ولكن ما ذنب ابنائه؟ ألم يقل الله في كتابة العزيز(ولا ترزوا وازرة وزرة اخرى) فخطأ الآباء يجب أن لا يدفعه الأبناء ليصدق المثل(الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون)وهذا ما عبر عنه عصمت في رسالة براءة من د . ن ص١٥٨(قتلت فينا ما هو جميل، وقتلت ذاك التناقض بين ذواكرنا وذواكر الناس الطيبين، ما أقسى هذا الشعور! يطول ليلاك فتبحث عن النهار لتتخلص من قسوة الليل،ويأتي نهارك فتبحث عن الليل لتتخلص من النظرات،في الليل تصبح لك حواس من الزئبق جاهزة حتى اعلى درجاتها ازاء أي نامة او نسمة،تتضخم الاصوات بفعل الخوف، فتتصورهم قادمين لقتلك، هل تعيش هذه المشاعر ام انك طلقت الاحاسيس بكل انواعها مذ ارتبطت ببعقوبك،وتركتها لنا لنعيشها نحن).

ان انتحار عصمت في ظروف نفسية صعبة وغامضة جعلته يكتب على قبره ما كتبه ابو العلاء المعري:-

هذا ما جناه ابي عليّ وما جنيت على احد

لقد نقلت رسائل عصمت فلسفة في حياة الكثيرين من المغتربين في ارض المهجر اضافة الى فلسفة الذين ضاقوا ذرعا بهذا الوطن، بسبب او بدون سبب

مقنع منهم، وعن ما آلت إليه اوضاع نتيجة سقوط والده في جحيم المخابرات، وكيف يفقد الانسان كرامته ونفسه وحتى أسرته .

رغم ان الكثير من الصفحات تمثل رسما ووصفا لعصمت، الا ان هناك وجوها اخرى رسمت في كثير من الزوايا، مع بعض التشابه في الألوان، ودقة التفاصيل وتباعد في الافكار بين هذه الوجوه،الا ان الرواية اعطت كل وجه حقه من الوصف،والتي عبرت بصدق عن مشاعر واحاسيس لهذه الوجوه..

رواية(وجوه أخرى) دقت كل الاوضاع الفلسفية والنفسية للبشر، رواية جادة تعبر عن الوضع الحقيقي لتلك الوجوه المرسومة بدقة متناهية في الرواية، اضافة للوصف الواضح الصريح المعبر.